الفصل الثالث

الاحتراف بالتوجيه

يرجع التوجيه فيما سبق .. اما الى الفلسفة أو الدين .. وكان للفلسفة اعتبارها منذ أن استقل التفكير الأوربى عن توجيه الكنيسة . ولم يبق للدين اعتباره الموضوعى ، من حيث صلاحيته للتوجيه الانسانى : كنظام استهدف انسانية الانسان فى علاقاته وسلوكه .. وقام على الايمان بالله ، وأصبح بالفعل عقيدة ايمانية تتبع ، ويضحى فى سبيلها .

والدين — كرسالة السماء — كان يمكن أن تظل له مكانته فى التوجيه ، ولا ينازعه فيه مذهب فلسفى آخر .. لو بقى مصوناً عن الاحتراف به ... ولم يستغل كوسيلة لغايات تبعده عن أهدافه الحقيقية ... كان يمكن أن يظل فوق مستوى الخلاف فى قيمته فى التوجيه لو لم تحمل نصوصه وتعاليمه ما لا تحتمل من رأى فى سبيل : سلطة ، أو جاه ، أو مال ، مما هو من زينة هذه الحياة الدنيا .

ولكن الانسان الذى آمن به وأطاعه ، والذى يؤمن به ويطيعه ، هو : الانسان الذى يستخدمه فى غير التوجيه الانسانى السليم ... هو الانسان الذى يحرفه ، ويؤوله لمصلحة خاصة يفيد منها .

ان الفلسفة بما يصحبها من محدودية فى الاعتبار ، بسبب الانسان المفكر .. لا تزيد أضرارها كثيراً عندما يحترف بها القائم على تنفيذها ..

ولكن رسالة الدين تصبح خطراً عظيماً على التوجيه ، وعلى الانسانية .. اذا دخل الهوى فى تفسيرها وتطبيقها . لأن الايمان بها يدفع الى قبولها ،

والى العمل بها ، دون مناقشة .. ثم الايمان بعصمة الرسول الذى نزلت عليه الرسالة يزيد فى تقبلها ، ويبعد جو الشكوى والأهواء عنها ..

فاذا حملت عندئذ من رأى من الانسان لا يحتمله منطقها ، ولا نظامها كوحدة ...

قبل هذا الرأى على : أنه منها ، والتزم به على .. أنه واجب التطبيق والعمل به ، وأخذ طابع الدين .. مع أن الانسان هو الذى قاله ، وانتقلت الى هذا الرأى العصمة عن الخطأ .. مع أنه هو قائم على الاحتمال فيه شأناً ، وهو بالذات بعيد عن الصواب : لأنه يصور هوى وغاية خاصة بالانسان المفسر فى صورة رأى .

... ثم العصمة التى تنتقل من الدين الى رأى الانسان على هذا النحو .. تتجاوز الرأى نفسه الى صاحبه ، وهو الانسان المفسر ... والى الانسان الذى يدعو الى الدين ... والى الانسان الذى ينتسب اليه بصورة ، أو بأخرى ..

... وهنا يزداد خطر التوجيه الدينى . اذ يصبح الانسان كأنه صاحب الدين ، ويأخذ وضع الله فى وحيه . والطاعة عندئذ ترتبط بمشيئة الانسان ، قبل أن ترتبط بارادة الله .

... ولو فرض أن صاحب الرأى كان متفوقاً فى تفكيره ، وفى مستواه الفكرى .. فان الخطر فى التوجيه لا يزال باقياً ، من حيث بقاء العصمة له والطاعة لرأيه من غير مناقشة .. وهذا فضلا عن أن العصمة تخرج بالانسان عن حدود الانسانية فى التقييم .. فانه يستحيل على انسان ما : أن يبقى دائماً متفوقا ، وفى مستوى واحد ، لا يعتريه ضعف فيه ، أو نزول عنه .

... والتحريف ، أو التأويل البعيد عن منطق الرسالة وأهدافها .. ينشأ غالباً فى فترات ضعف التفكير الدينى .. عندما تسود التبعية وتقل الأصالة فيه .. وكذلك عندما يتزاحم التابعون للدين على جاه الحياة ومتعها .. فيستخفون بالدين فى سبيلها ، بعد أن كانوا يضحون بها فى سبيله .

والتحريف ظاهرة تكاد تكون انسانية عامة : تراها فى تخريج اليهودية .. والمسيحية .. وتخريج الاسلام .. وتراها فى تخريج كل عقيدة ، كان لها أتباع وأصحاب دعوا ، لها .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل »(١) .

---

(١) المائدة : ٧٧ .

... هى ظاهرة انسانية .. لأن الدين كائن حى تعتريه القوة ، والضعف .. ومن قوته ينشأ ضعفه .. ومن ضعفه تنشأ قوته .. وهكذا ...

... وهو لا يذهب الا بذهاب الانسان نفسه وفنائه ..

ولكن طالما هناك انسان .. فهناك دين فى وضع ما ... وضع القوة ، أو وضع الضعف .

... من قوة الدين ينشأ ضعفه .. لأن قوة الدين ليست منعزلة عن قوة المؤمنين به . ويوم يكون التابعون للدين أقوياء ، أعزاء ، أسياداً فى أرضهم ومجتمعهم .. يوم يبدأون فى الفرقة والخلاف من أجل هذه القوة ... يوم يبدأ بعضهم ينافس البعض الآخر فى زعامة هذه القوة وتوجيهها ... يوم يبدأ ينافس بعضهم بعضاً جاه هذه القوة ومظاهرها : لمن أولا ؟ .

... وعن الخلاف والفرقة بين التابعين للدين .. ينشأ الضعف فى صور عديدة ، ويأخذ مراحل متتالية .

فاذا وصل الضعف الى نقطة تهدد بالفناء والالغاء من هذا الوجود .. ابتدأت القوة من جديد فتتجمع العناصر المفرقة ، التى يشارك بعضها بعضاً الايمان بأنفسهم وبدينهم ..

... ومن هذا التجمع تنتقل القوة فى مراحل كثيرة ... تنتقل من التغاضى عن الخلافات الفرعية ، والقبلية ، الى المبادىء العامة والأصل العام ... ومن الاعتبارات الطائفية الداخلية الى مواجهة التحدى الخارجى .. وهكذا .. الى أن تجتمع على الأسس الأصلية التى وحدت الأمة عند تكوينها ، والتى كانوا بها أقوياء ... وأصحاب سيادة على أنفسهم وفى ديارهم .

... ويجتمعون عندئذ على الايمان بها والتضحية فى سبيلها .. بالجاه ، والمال ، والأنفس .. وبذلك يعودون الى نفس الوضع الذى جعل لدينهم القوة ، وجعلهم أقوياء .

.. فاذا انحدر الايمان من هذه الأسس الأصيلة الى دروب فرعية ، تغطى نزعات أو أهواء خاصة ، وانتقل الفكر من المبادىء العامة الى الفروع التى تخلق طوائف ، أو تحمى طائفية .. ابتدأ الضعف من جديد . وهكذا ... دواليك .

واذا كان التحريف فى التخريج ظاهرة انسانية عامة .. فهو مترقب ، وهو واقع بالفعل .. وتعدد رسالات الرسل كانت لابعاد التحريف الذى

يقع فى تخريج رسالة رسول منهم ... من أتباعه ، واعادة القوة والحياة الى رسالة الله من جديد ..

فدين الله واحد ... هو الاسلام ،

ورسالته واحدة ... هى السلام ،

... حتى كان محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين ،

... وكان القرآن كتاب الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. تواترت قراءاته ، وأجمعت الأمة على صحته .. واجتمعت عليه :

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(١) .

... وبهذا التسجيل المتواتر ، والاجماع التام على كتاب الله ، الذى يتضمن رسالته ، ... لم يعد هناك مكان لانكار بعض الأصول العامة فيه ، وان بقى امكان التحريف .. فى الفهم ، والتأويل ، والحمل والتخريج لنصوصه .

... وبذلك .. لم يعد هناك مكان لرسول جديد ، بعد محمد عليه الصلاة والسلام .

... وبهذا .. كان هنا مكان لتجديد الدعوة واحيائها :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »(٢) .

... ومن هنا : كان محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل .. وكان القرآن مصدقا لما بين يديه ، من التوراة والانجيل :

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه »(٣) .

... وقع التحريف فيما بعث به موسى الى بنى اسرائيل من رسالة الله ، وهى التوراة ..

---

(١) البقرة : ٢١٣ . (٢) آل عمران : ١٠٤

(٣) المائدة : ٤٨ .

ووقع من بعض الأحبار والمتفهمين لتلك الرسالة وحملة الرأى فيها ..

وحال هذا التحريف بينهم وبين أن يؤمنوا برسالة عيسى ، ثم برسالة محمـــد من بعده ..

ونعت بنو اسرائيل النصارى بأنهم : ليسوا على شىء : « **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء** »(١) ... كما نعت النصارى اليهود بأنهم ليسوا على شىء : « **وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** »(١) .

... وكفر بنو اسرائيل بعد ذلك بما جاء به محمد ، مع أنه مصـــدق لما أنزل عليهم : « **واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لمـــا معهم** »(٢) .

... وقع التحريف كذلك فيما بعث به عيسى الى بنى اسرائيل من رسالة الله ، وهو الانجيل .. ووقع من الذين علموه وتفهموه .. ونقلوا الرسول وأمه الى مستوى الألوهية :

« **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المســيح ابن مريم ، وقال المســيح يا بنى اسرائيل اعبــدوا الله ربــى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حــرم الله عليه الجنة ومأواه النار ...** »(٣) .

« **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعـــام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ، والله هو السميع العليم . قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل** »(٤) .

... وحال هذا التحريف دون الايمان بما جاء به القرآن : « **واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفســك ، انك أنت علام الغيــوب . ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبــدوا الله ربى وربــكم ، وكنت عليهم شــهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كــل شىء شــهيد** »(٥) .

---

(١) البقرة : ١١٣ .
(٢) البقرة ٩١ .
(٣) المــائدة : ٧٢ .
(٤) المــائدة : ٧٥ ــ ٧٧
(٥) المــائدة : ١١٦ ، ١١٧ .

... ومع ذلك لم يكن موقف النصارى من : القـرآن ، ومن المؤمنين به .. على نحو ما كان عليه موقف أرباب التوراة من : التآمر ، والخديعة ، واثارة الفتنة :

« لتجدن أشـد النـاس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنـوا الذين قالوا انا نصـارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحـق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين »(١) .

... وبقى امكان التحريف فى الفهم ، والتأويل ، والحمل ، والتخريج .. لما جاء فى القرآن :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغـاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب »(٢) .

.. دوافع التحريف فى توجيه الدين :

- وأهم دافع على التحريف والتأويل المبعد ، هو .. خلق زعامة ،
- .. أو الاحتفاظ بزعامة ،
- .. أو تحصيل منفعة دنيوية ... هى جاه ، أو مال .. من وراء تلك الزعامة . وما يصوره القرآن فى هذا الشأن بالنسبة لليهود .. فى قوله :

« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتـاب لتبيننه للناس ولا تكتمـونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون »(٣) .

... هو ما يتصور فى شأن كل تحريف .. لأى دين أو عقيدة .

وما يذكره أيضا جزاء لهذا العمل .. فى قوله :

« ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتـاب ويشـترون به ثمنا قليلا

---

(١) المائدة : ٨٢ ــ ٨٤ (٢) آل عمران : ٧
(٣) آل عمران : ١٨٧

أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على النار . ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد »(١) .

... هو جزاء لكل عمل شابه ذلك ، أتى به من أؤتمن على الهداية باسم الله .. فأساء الى توجيه البشرية اساءة بالغة .

... اذ ما يصوره القرآن هنا : هو كشف للدافع الانسانى على تحريف توجيه الدين ، وعلى خطورته : فى استغلال خصيصة الدين ، وتصديق المصدقين به من الناس .

.. ولا يعرف استغلال للبشرية أشد خطورة من استغلال الدين . فدونه بكثير استغلال المعرفة الانسانية .. أو استغلال المال ..

ولذا ما يذكره القرآن هنا من جزاء ، فضلا عن تكافؤه معه .. يشعر بمدى خطورة مباشرته على الانسانية . فقد أشارت الآية : الى أن ما يؤخذ من ثمن فى مقابل التحريف مهما كان كبيرا فى حجمه ... فهو قليل فى قيمته واعتباره . لأن مصيره لا للنفع ، وانما هو للضرر ... « **أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار** » .. فهو نار أو كالنار فى احراقها وايلامها .. ثم حددت الآية كذلك الجزاء : بغضب الله على المباشرين لهذا العمل .. والاعراض عنهم يوم القيامة ، وعدم تزكيتهم وعدم تبرئتهم من هذا العمل .. ثم العذاب الأليم الذى ينتظرهم .

... استغلال المعرفة الانسانية دون استغلال توجيه الدين بكثير .. لأن المعرفة الانسانية لا تملك فى توجيهها على الناس قلوبهم ومشاعرهم ، ولا تحملهم على التضحية والاخلاص فى سبيلها ، مثل ما يصنع الدين ... فيوم تستغل المعرفة ينكرها الناس فى غير اخفاء ، وفى غير أسف .

... ودون استغلال المال . لأن المال يوم يستغل .. يثور الناس على مستغليه ، وينزعونه من أيديهم ، وينتهى بذلك استغلاله .. كما ينتهون هم أنفسهم .

... أما يوم أن يستغل الدين فالطاعة باقية ، لا انكار له ، ولا ثورة عليه . والانحدار بالانسانية صائر الى نهايته لا وقوف فيه . والفجوة فى

---

(١) البقرة : ١٧٤ — ١٧٦

تصور القيمة تعظم بين من يباشر الاستغلال ومن يطيعونه .. مع أن الكل بشر .. ويؤول الأمر الى السيطرة المحتكرة ، التى لا ترد ولا تعارض ..

ان التشعب الذى حصل فى الأمة الاسلامية ، منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ... اتخذ سنده من الدين .. بينما دفع اليه حب الاستئثار بالزعامة .

... والخلاف بين الجبريين ، وأصحاب الحرية والمشيئة من الكلاميين، وأرباب مذاهب العقيدة .. لم يكن منشؤه القرآن ، وان طوع بعض نصوصه .. وانما كان منشؤه : تأييد الحكم القائم .. حكم بنى أمية .. أو معارضته .

والنزاع بين المجسمين فى الشرح والمؤولين .. بين الماديين والمعنويين، فى عرض عقائد الاسلام .. لم يكن جو القرآن هو الذى أوحى به .. وانما كان الانتصار لمذهب أو لآخر من المذاهب الدخيلة التى استهدفت التشكيك فى العقائد ، والتفتيت لوحدة الأمة ، واستهلاك النشاط الفكرى لعلمائها فى الخصومة العقلية ، والطائفية .. وليس فى البناء والاستمرار فيه .

وان الخلاف بين الشيعة والسنة .. لم يكن مما يمليه القرآن .. أو يطلبه .. بل مما يمنعه ويحذر منه :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ... »(١)

ان الخلاف فى الرأى بين المسلمين اذا وصل الى تنازع يهدد وحدة الأمة .. وجب الرجوع به الى القرآن والسنة ، حسما للنزاع ومنعا من الاستمرار فيه :

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »(٢) .

... ولكن اقحام « الانتساب » الى بيت الرسول ، أو الى قريش فى مجال اختيار القائد والامام للأمة كعنصر أساسى ، أو عدم اقحامه .. كان موضع الخلاف بين من يعرفون بأهل السنة ، والآخرين الذين يوصفون بالشيعة ..

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) النساء : ٥٩

... هل الصلة بالرسول فى نسب ، وما يخرج منه .. توجب الأولوية بالامامة فى الأمة ؟ أم تبقى خارجة عن دائرة الامامة وشروطها ، ولها اعتبارها الأدبى فى نفوس المؤمنين فحسب ؟ .

... وكان أيضا سبب الخلاف بين : الخوارج ، ومن عداهم :

... هل الانتساب الى قريش .. شرط أساسى فى الامامة أم لا ؟

... هل على ، لأنه زوج فاطمة ... أولى بالخلافة : من أبى بكر .. وعمر .. وعثمان ؟ ... أم مصاهرته للرسول ، وانتسابه الى بيت الرسالة .. أمر مستقل ، له تقديره الخاص ، ولا يدخل فى شئون الأمة كعامل فاصل فى مستقبلها ؟ .

ومعارضة فريق من العلماء لادخال النسب كعنصر مقوم فى اختيار الامام ، بالاضافة الى تشدد هذا الفريق فى ابعاد : المحسوبية عن الولاية العامة ، مع استنكار ما وقع فى عهد عثمان من توليـة الأقارب من غير ذوى الكفاية ... جر ، على هذا الفريق حربا مريرة ... تعرض لها أيام عثمان .. وعلى عهد .. على .. على السواء .. وانتهت بمصادرته وأخـذ اسم **الخوارج** تغليظا لأمره ، واستنكارا لاتجاهه ..

ان بعض الشيعة فيما يراه من : **عصمة** الامام والتوسل به .. لايحتاج الى توضيح فى معارضته للاسلام معارضة صريحة . لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ذاته لم تكن له هذه العصمة ، فيما وراء القرآن وما أوحى به اليه . ولو كانت له هذه العصمة ، لمـا أنكر القرآن تأليه عيسى ، وأكد بشريته ..

فالعصمة عن الخطأ خاصـة من خواص الكمـال المطلق الذى هو لله وحده .

ولا يعيب الرسول أنه بشر ، وأنه يمشى فى الأسواق ، ويأكل الطعام .

وما كان الا بشرا .. يجوز عليه الموت والمرض .. كمـا يجوز على الناس ،

ويجوز عليه الخطأ ، فيما عدا ما أوحى به اليه .. كما يجوز على بقية الناس ولكن ان أخطأ .. فعن غير قصد ، لمـا له من صفاء النفس ، وايمان القلب ، والتحكم فى هواه .

... وان بعض الصوفية ـ فيما يراه من عصمة : **صـاحب الكشف** واسـقاط التكاليف الشرعية عنه ، والاستشفاع به .. لا يعـود الى الدين

ومبادئه ، وانما يرجع الى التأثر **بالدخيل** من الفكر والاتجاه فى ايجاد زعامة دينية تسيطر فى توجيهها ، وتطاع طاعة لا تردد فيها ، كصورة للاله على هذه الأرض .. يرى التابعون لها : شخص الزعيم فيها ، ومع ذلك يعتقدون : أنه فوق البشر ، ويستشفعونه ... ويطلبون منه الغفران والعفو ، فيغفر لمن يشاء عمن يشاء .. وهو ذلك الانسان : يموت ، ويصح ، ويمرض ...

كل هذه الاتجاهات الطارئة على الاسلام ومبادئه ، تحاول فيما تحاول .. أن تقهر لها النصوص الدينية قهرا .. فان استعصت هذه النصوص اختلقت لها بعض الروايات منسوبة الى الرسول عليه السلام . لكن هذه الروايات لا تتحدى البحث ، ولا تقف فى وجه الاختبار الدقيق لها .

... وقد يستمر التحريف فتطلب الطاعة : **للامام الغائب .. أو للصبى** الذى نصب اماما بالوراثة . وكل ذلك احتفاظ بالزعامة الدينية .. واستغلال لها .

وما نشأ هنا فى الاسلام من عصمة **للامام** وتوسل به ، وتقديس له .. نشأ قبله فى المسيحية ، وقامت بعض الكنائس كسلطة روحية على أساسه . فالرئيس الأعلى للكنيسة : له قداسة تشبه قداسة الله فى السماء .. وله عصمة عن الخطأ فيما يقوله ويأمر به ... وله حق الغفران .. وحق اللعنة والطرد ! ! ..

وما ذلك : الا شرك فى خصائص الألوهية ، وتمييز للانسان بما يخرجه عن طبيعة الانسانية الى ما فوق مستواها ... وانكار على العقل البشرى أن تكون له حرية الفهم فى كتاب الله .. وحرية العمل فى ضوء ما يفهم ، طالما هو يلتزم حدود الفهم الصحيح والتخريج السليم .

والفقه الاسلامى صورة لحرية الفكر الانسانى فى مبادىء الاسلام وتطبيقه . وأصول الفقه صورة أخرى لحرية العمل فى ضوء ما يفهم . فمن المبادىء المقررة بين مبادىء أصول الفقه : أن اجتهاد المجتهد لا يلزم بالعمل الا نفس المجتهد .. اذ ما يفهمه ... يحتمل الخطأ والصواب .. ومن ثم فليس هناك لأحد آخر الزام به ... انما هو التزام من الفقيه المجتهد .

والفقه الاسلامى على هذا النحو ... يعارض ما انتهى اليه التحريف من العصمة لانسان ، ومن تقديسه ، ومن التوسل اليه .. فى غفران الذنوب ، أو فى نيل الثواب .

... فاذا أبقى غلاة الشيعة ، وغلاة المتصوفة ، وزعماء بعض الكنائس على ما انتهوا اليه فى تقييم شخص الزعيم الدينى من الغلو فى التصوير ..

كان هذا الابقاء أمارة على الاستمرار فى استغلال التوجيه الدينى لمصلحة خاصة ... وكان بالتالى سببا لوجوب ابعاد الدين عن الصلاحية لتوجيه الانسانية .

وهنا حركة التمرد التى قام بها الفكر الفلسفى فى أوربا ضد الكنيسة.. كانت لمصلحة الانسانية ، وان أساءت الى الدين . والنظرة السليمة : هى مطاردة الشرك أينما كان ... مطاردة الغلو فى تقدير الانسان .. مطاردة رفع الانسان فوق طبيعته ... مطاردة تركيب الانسان من طبيعتين : الهية وانسانية .. بدلا من تركيبه .. من غرائز .. وعقل .

وفى القاهرة قامت حركة تقريب بين المذاهب الاسلامية لتقريب ما بين السنة والشيعة وبدلا من أن تركز نشاطها على الدعوة الى ما دعا اليه القرآن ، اذا وصل الخلاف فى الرأى الى نزاع .. كما جاء فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »(١) .

... ركزت نشاطها الى احياء ما للشيعة : من فقه .. وأصول .. وتفسير .. ونشر المقالات التى تدعو دعوة عامة الى عدم التفرقة بين المسلمين ! .

ولعل هذه الجماعة تصبح ذات يوم مصدر دعوة دينية خالصة .. لا تشوبها نزعة مذهبية ، أو سياسية ، وتدعو الى نقد المذاهب الاسلامية جميعها فى ضوء ما ورد فى القرآن وحده ، لتصل بالايمان من جديد الى وحدة المبادىء القرآنية نفسها .. غير محتفظة بقواعد المذاهب بعيدة عن مجال النقد .

فقد عاش القرآن طوال نزوله وهو لا يعرف مذهبا ، ولا قاعدة لمذهب.. وكان المسلمون اذ ذاك ، وهم خيارهم .. يتبعون القرآن ، ويعيشون فى جوه ، وفى سبيل مبادئه ... دون أن تستند تبعيتهم لامام فقيه ، من بينهم .

ولعل الكنيسة صاحبة الاتجاه فى عصمة رئيسها الأعلى .. تراجع تلك المبادىء التى تحول الانسان الى اله .. وتسقط الاله الى انسان ، وتدعو الى الله وحده .. لينصرف خير الدين كله الى الانسانية ، وليكون للناس حجتهم فى الطاعة الى مبادىء الدين ، وهى الحجة القائمة على الاقتناع الحر.

---

(١) النساء : ٥٩

ولن يكون هناك اقتناع حر . الا اذا مارس الناس حريتهم : فى التفكير .. وفى التقييم .

وعندئذ يبدأ الدين عهدا جديدا .. هو عهد الرسالة السماوية التى لها صلاحية التوجيه وحدها ... لأنها للانسان .. تعيش معه ويعيش بها . ويسعد معها بانتهاء عهد القلق والخوف . وما كان القلق ، والخوف ، الا للفرقة ، والاختلاف فى الرأى ، والتنازع فيه .

... ودافع آخر يدفع الى التأويل الذى يستر وجه الحقيقة فى توجيه الدين .. وهو دافع النفاق ... ولا يمارس النفاق فى توجيه الدين عادة الا : من كانت حرفته الدين ، والاسترزاق به ... الا من كان الرأى فى الدين وظيفة له وتعلقت بها معيشته ... الا من لا يستطيع أن يمارس عملا آخر فى الحياة ، سوى أداء رسوم الدين للآخرين ، وافتائهم فى مشاكلهم التى يستفتونه فيها ، بين هؤلاء المستفتين ! .. الحكام .. وأصحاب العهود السياسية المختلفة ..

هذا النفاق لا يصل أمره الى تحريف جديد فى مبادىء الدين .. وانما يدفع الى التفتيش فى التراث الفكرى الدينى لاستخلاص رأى .. يريح صاحب الشأن ، ويبرر اتجاهه .. أو مسلكه ! .

وتراث الفكر الدينى ليس كله صورة صحيحة تعكس مبادىء الدين .. بل منه ما كان تحريفا أو تأويلا بعيدا لبعض هذه المبادىء ... ومنه ما تم تحت تأثير ثقافات ، أو عقائد أجنبية تتعارض : فى أصولها ، ومنطقها ... مع مبادىء الدين ومنطقه .

... تراث الفكر الدينى : هو مجموع الآراء التى تكونت حول الدين .. فى تأييده ، أو شرحه أو التفقه فيه ، أو الملاءمة بين مبادئه ومبادىء أخرى ، أو فى جذبه وشده ، وحمله واكراهه على تأييد اتجاهات اخرى .. يراد لها أن تأخذ طابع الدين والعقيدة ! .

... لا يصل أمر النفاق الى تحريف جديد فى مبادىء الدين ، لأن النشاط العقلى للمنافق لا يساعده على أن ينسب الى الدين جديدا : اذ نسبة الجديد لانسان اعلان لهذا الانسان وكشف له . وذلك مما يتعارض مع التخفى والتستر ... الذى هو طابع النفاق

ان النشاط العقلى للمنافق يتركز فى التحايل ... ويتركز فى الملاءمة .. يتركز فى الحصول على المنفعة ... دون أن يرى طريقها أو مصدرها .

... المنافق لا يصادق ولا يخاصم ، وانما ينتهز ... لا يصادق ، لأن

الصداقة تتطلب وفاء قد يؤذيه أداؤه ... ولا يخاصم ، لأن الخصومة تتطلب معارضة قد تضر مباشرتها منفعته الخاصة . وهو قد طبع على تجنب الضرر والايذاء ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وطبع فى الوقت نفسه على اقتناص المنفعة وما وسعته الحيلة الى اقتناصها ومن ثم لا يرى فى سلوكه واضحا ، ولا تعكس صورته مرآة واحدة .

ان عدم ايمان المنافق يسر له السبل الى تحصيل المنفعة الشخصية . ومن بين هذه السبل : الاتجار بالقيم ، والاحتراف بالدين ، والتعيش من ممارسة حرفته . فهو لا يأسى فى نفسه على قيم تهدد ، ومبادىء تعطل أو تسخر ... ولا يأسى فى نفسه على أن لا يستقيم أمر التوجيه الانسانى ، ولسوء مصير العلاقات بين الأفراد فى المجتمعات .

انه ضعيف ، ولضعفه لا يظهر فى جانب ، دون بقية الجوانب ،

انه أنانى ، ولأنانيته يفتش عن سبيل منفعته الخاصة ،

انه لا يركن اليه ، لأن الركون اليه استناد على هش رخو ليست به صلابة ولا استقامة .

انه لا يؤمن لأنه سرعان ما يخون الأمانة ،

ان مايأتى به من رأى فى الدين لا يوثق به ، لأنه للشيطان ، وليس لله.

وصنعة النفاق فى توجيه الدين شاقة مواجهتها وتحديها ... ولكنها ليست صعبة فى اجتثاثها من جذورها .

ان منع اتخاذ الدين حرفة ومهنة ... هو السبيل المتعين للقضاء على النفاق فى توجيه الدين .

... وان الحيلولة دون تكوين نفر فى المجتمع باسم : طائفة رجال الدين ... خطوة فى هذا السبيل .

وان ابعاد تمييز المنتسبين الى الدين بزى خاص .. خطوة أخرى فى هذا السبيل كذلك .

... ولكن قبل هاتين الخطوتين ... يجب الغاء الاحتراف بالدين بتوجيه جديد نحو : حرف ومهن أخرى فى الحياة .

ان رأى الدين .. فى كتاب الله وسنة رسوله ،

وان أولى الناس بمعرفة هذا الرأى .. هم المتفقهون فيه ،

وان المتفقهين فيه .. ليسوا هم المحترفين بكتب الفقه ، والمتعيشين من ترديدها قراءة ، وضبطا لأسلوبها ... وليس فهما وعرضا لما فيها .

... المتفقهون هم : أصحاب الملكات الفقهية ، الذين دفعهم الايمان ، وحب الدراسة والمعرفة للحق فى ذاته ، واخلاصا لوجه الله .

ان كتاب الله .. مفتوح لمن يقراه ،

وان سنة رسوله .. واضحة المعالم لمن يسترشد بها ،

وان كتب الأئمة من الفقهاء .. ميسرة لمن يطلع عليها ،

وان الايمان بعد ذلك بالله ... كفيل بأن يدفع نحو القراءة والاسترشاد، والاطلاع .

واذن ليس هناك داع لطائفة خاصة تأخذ لنفسها الحق دون غيرها فى الرأى فى دين الله ، وقد لا تعرفه أو تتعرفه ... وتتزيى بزى خاص يضفى عليها لونا من القداسة ، للخداع .. وليس للتعبير عن واقع .

ان الكنيسة فى المسيحية بما اصطنعته من رجال الدين ، ومن سلطة روحية لها ، قد عزلت الدين عن المجتمع ، وعن الفكر الانسانى ، ولم تحسن للدين بما صنعت ، وان ظنت أنها تحسن صنعا .

وفى الاسلام .. صار الوضع الى ما يشبه الكنيسة ورجالها .

ودين الله ، وهو ما جاء به محمد .. أو عيسى .. أو موسى قبله :

... يأبى أن يعزل عن الحياة ،

... ويأبى أن يكون وقفا على طائفة خاصة ،

.. ويأبى أن تكون لهذه الطائفة سلطة فى الرأى دون غيرها ..

ان **الاجماع** فى الاسلام .. كان دليلا فقهيا .. وليس سلطة تمارس وتفرض الطاعة ... وكانت مرتبته فى الدلالة تأتى .. بعد كتاب الله ، وسنة رسوله .

... وان أئمة الفقهاء فى الاسلام ، لم تكن حرفتهم : الفقه واستنباط الأحكام . بل كان مصدر رزقهم فى معيشتهم : تجارة أو حرفة أخرى . ولم يحتكروا الفقه والفتوى بالرأى .. بل كل منهم كان يقول بعد أن يرى الرأى.. **والله أعلم .**

وتلك هى الصورة الصادقة لدين الله واتباعه ، التى تبعده عن التحريف والاحتراف فى توجيه الانسان .. والتى من أجل ذلك تجعل منه توجيها صالحا أبديا فى صلاحيته للانسانية .. ما بقى انسان :

(أ) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما فقط فيما أوحى اليه من ربه ، وكان انسانا ، وظل انسانا .. فيما عدا ذلك ،

(ب) وكل انسان يعمل .. ومسئول وحده عن عمله ،

(ج) وكل صاحب رأى فى الدين .. عرضة لأن يخطىء ويصيب فيه ،

(د) وكل انسان مهما كانت تقواه .. لا يرتفع فوق مستوى انسانيته ،

(هـ) وكما أن الايمان بالله لا اكراه فيه .. كذلك دين الله مفتوح للرأى لمن يجيد استنباط الحكم منه ،

(و) وليست الدعوة الى دين الله .. سلطة تمارس .. ولا ولاية تولى، ولا طائفة معينة ،

(ز) وليست الدعوة لدين الله .. حرفة ولا مهنة ، وانما يقوم بها من يرى نفسه اهلا لها لوجه الله وحده .. ولمصلحة الانسانية دون غيرها .

... ان الاحتراف بالدين .. هو احتراف بالقيم العليا ،

... والاحتراف بالقيم العليا .. مظهر من مظاهر المراهقة الفكرية .

اذ المرحلة السابقة فى المجتمع على مرحلة المراهقة .. هى : مرحلة البدائية ، أو الطفولة البشرية .

وفى هذه المرحلة لا تكتشف القيم العليا ولا تعرف .

والمرحلة التالية للمراهقة فى تطورها .. هى مرحلة الرشد أو الانسانية .. وهى مرحلة تطبيق القيم العليا واتباعها .

وخاصة مرحلة المراهقة اذن هى : التوسط بين المرحلتين . والوسط بين ظواهرها .. هو معرفة القيم من جانب ، وعدم الامتثال لها . ثم الاحتراف بها من جانب آخر .

وخطأ الثورات فى المجتمعات هو : فى عدم التنبه الى الاحتراف بالقيم العليا .. وسيادة هذا الاحتراف على سلوك الانسان فيها .. وتركيز الاتجاه فقط على مجال السياسة ، أو مجال الاقتصاد .

ان عدم عناية الثورات بمظاهر المراهقة الفكرية فى المجتمع يسبب لها الانتكاس بعد وقت قريب أو بعيد .. لأنه يترك الجو المهيأ للنفاق فسيحا ليس له حدود .. وحرا .. لا تعوق الحركة فيه عقبات .

... ان انتسب انسان فى هذه المرحلة الى الشجاعة .. سيحترف بشجاعته ، ولا يمارسها فى ميدان الحرب ، عن ايمان بقيمة الشجاعة .

... وان انتسب الى السياسة . سيحترف بالقيم السياسية ، ولا يُطبقها فى عمله تعبيرا عن ايمان واعتقاد بها .

... وان انتسب الى الدين .. سيحترف بالقيم الدينية ويوجهها يمينا ويسارا حسبما يكون ربحه من الاحتراف بها .. دون دافع من ايمان بها .

... وان انتسب الى القانون .. سيحترف بقيم العدالة فى تشريعه وفى تطبيقه .. بعيدا عن حافز الايمان والتفاعل معها .

... وان انتسب الى الفكر فى أى جانب من جوانبه — فلسفى أو اقتصادى سيحترف بالحرية الفكرية .. مسخرا اياها فى خدمة الأغراض الشخصية .. دون أن يكون متمثلا لها فى نفسه ، كاحدى القيم العليا التى تصور الانسانية فى خواصها الرفيعة .

وإذا ساد النفاق فى مجتمع ضيق الخناق على الايمان فيه . وهنا لا تستطيع الثورة أن تنمى جذورها فى النفوس .. كما لا تستطيع أن تكون لها سندا قويا فيها ، تستند اليه فى مواجهة الأزمات الداخلية أو الخارجية . والمجتمع كأى كائن هو عرضة للابتلاء والاختبار :

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »(١) .

ولم يكن ما ذكره القرآن من مواجهة المجتمع للتحدى الخارجى عنه هنا .. خاصا بمجتمع الدعوة الانسانية . انما هو سنة كل مجتمع جديد يقوم على انقاض مجتمع سابق .. والثورة ليست الا تكوين مجتمع آخر ، له أهدافه ومبادئه .. يغاير فيها المجتمع الذى انتهى بقيامها .

... وكذلك ما يذكره القرآن من تعرض المجتمع لأزمات داخلية .. فى قوله :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين »(٢) .

---

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) البقرة : ١٥٥

... لم يكن حدثا تعرض له المجتمع الاسلامى وحده .. وانما هو شأن المجتمعات الانسانية كسنة طبيعية .. لا تتخلف .

وفيما ذكره القرآن فى أزمات المجتمع الخارجية والداخلية .. ربط النجاح فى اجتيازها والسلامة منها .. بالصبر والتقوى .

ولن يأتى الصبر من منافق ، ولن تكون التقوى من غير مؤمن .

ان خطأ الثورات الاقتصادية ليس فى اهمال معالجة الاحتراف بالقيم العليا فقط .. وانما فى الاستهانة والاستخفاف بظاهرة الاحتراف نفسها ، اعتمادا على أن تحقيق التوازن الاقتصادى وهو هدفها الأصيل .. كفيل بتماسك المجتمع وحماية وضعه من التدهور . ولكن التوازن الاقتصادى أن تحقق ، لا يحمى نفسه .. انما الذى يحميه .. الايمان بفلسفته .

والجوانب المادية فى حياة الانسان تعيش فى ظل روحية ، تسكن نفسه ، فان خلت من روحية ، خرجت من اطار التوازن الى الطغيان ، أو الانقسام والفرقة .

... واذا كان التحريف فى مبادىء الدين من أجل زعامة دينية ، والاحتراف به من أجل الارتزاق وبسبب النفاق .. هما العاملان اللذان يحملان عادة على خروج الدين من صلاحية التوجيه العامة ... فعامل النفاق من بينهما أشد تأثيرا على توجيهه ، وأكثر ترويجا لآثاره .

... وكلاهما شر يجب أن يقاوم .... ليستقيم الدين على طبيعته فى توجيه الانسان :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »(١) .

* * *

(١) البقرة : ٢ ، ٣